

بسم الله الرحمن الرحيم

زيارة إلى الزاوية البلقائدية بوهران

كنت في مؤتمر ، دعا إليه مخبر مخطوطات جامعة وهران ، حول مخطوط
الفقه المالكي ، وبعد انتهاء المؤتمر دُعي الوفد المشارك في المؤتمر إلى زيارة
الزاوية البلقائدية بوهران .

دخل الوفد مقر الزاوية ، المكون من مسجد كبير وساحات واسعة ، وفصول
دراسية متعددة ، لتعليم القرآن الكريم وغيره من العلوم الشرعية ، ومرافق مهمة
للطلبة مثل المكتبة ، وغرفة الكمبيوتر والمطعم وغير ذلك ، دخلنا المسجد بعد
صلاة المغرب ، فوجدنا به صفوفًا طويلة مترابطة من طلاب العلم جالسين ،
وشيوخهم يقرؤهم كتابًا من كتب الفقه بالطريقة القديمة المفيدة ، التي تكون بها
الشيوخ والعلماء في المدارس العلمية المشهورة على مر العصور في تاريخ
المسلمين ، أخذ أحد الطلاب يقرأ والشيخ يحلل العبارة ويشرح الدرس ، استمعنا
إليهم بعضًا من الوقت ، وبعد أن ختم الشيخ درسه سألته ماذا تقرؤون ؟ قال :
الشرح الكبير للشيخ الدردير على مختصر خليل في باب الجمعة ، وكانت طريقة
ختمهم للدرس غريبة إليّ ، انطلق صوت الجمع الكبير من الطلاب الجالسين فجأة
في وقت واحد صاحب ، يقرؤون على وزن كلاما لم أُميّزه بادئ الأمر ، ثم سرعان
ما أدركت أنهم يقرؤون متن الشيخ ابن عاشر للمراجعة ، وبعد الانتهاء من ابن
عاشر أنشد أحد الجالسين إنشادا ترنم به ، ثم أتوا بقصيدة ، لعلها في مدح النبي
ﷺ لا يحضرني الآن مضمونها ، لكن هي أيضا بصوت صاحب مرتفع جدا لا
يليق بالمسجد ، وبعد فراغهم طلب مني المدير المسؤول على المؤتمر أن ألقى
كلمة الوفد ، فقلت في نفسي : أنسب ما أتكلم فيه الليلة في هذا المسجد ، التنبية
على المخالفات التي رأيتها فيه ، مناصحة لأهله الذين اعتادوا على ذلك .

كان مما قلته لهم في كلمتي : قد سرني كثيرا ما رأيت من جلوسكم صفوفًا

متراصين تقرؤون الشرح الكبير على شيخكم ، وفرحت بذلك فرحا عظيما ، وأنكم تغبطون على محافظتكم على التعلم بهذه الصورة ، بهذا العدد الكبير كل ليلة ، وأن هذا النمط التعليمي النافع على هذه الهيئة صار نادرا ، قليل النظير في كثير من بلاد المسلمين ، لكن الذي لم أسترح إليه هو قراءتكم الجماعية الصاخبة التي لا يكاد السامع يميز منها شيئا داخل المسجد ، وأنتم طلاب علم ولستم من العامة ، وتعلمون أن النبي ﷺ حين سمع أناسا يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة ، رفع الستارة ، وقال لهما : لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن ، فكلكم يناجي ربه (رواه مالك في الموطأ) ، فإذا كان رفع الصوت القليل بالقرآن في المسجد داخل الصلاة منهيا عنه ، فكيف بالأصوات الصاخبة مثل ما سمعناه هذه الليلة ، وبغير القرآن؟! .

ثم إنكم مالكيو المذهب ، وتقرؤون كتابا من كتب الفقه المالكي المعتمدة في الفقه والفتوى ، وهو الشرح الكبير على مختصر الشيخ خليل ، ودرسكم هذه الليلة بالذات في باب الجمعة ، والشيخ خليل في باب الجمعة ، الذي تقرؤونه هذه الليلة ، تقول عبارته بالنص : « وأقيم قارئ » يعني أن قارئ القرآن الذي يرفع صوته في المسجد يوم الجمعة بالقرآن يمنع من القراءة ويخرج ، لما في ذلك من التشويش على الناس ، ونص عبارة خليل في حكم الاجتماع للذكر على الهيئة الجماعية التي تصنعونها في المسجد تقول : « وكره جمع كثير ، أو بمكان مشتهر » ، فكيف سمحتم لأنفسكم بمخالفة ما تقرؤون ؟ .

ثم ذكرت لهم بعض المقدمات الضرورية في العلم ، منها : أنه يتعين على المكلف ألا يقدم على عمل حتى يعلم حكم الله تعالى فيه ، وهو حكم مجمع عليه بين أهل العلم ، فإن الإنسان قد يواظب عمره على عمل يظنه طاعة ، وهو ليس كذلك ، فالعمل لا يكون مقبولا ولا صحيحا بالإخلاص وحده ، حتى يكون مع ذلك على الشرع والسنة ، وكل عمل ليس على وفق السنة فهو رد .

ومنها أن العلم إنما يتعلم ليعمل به ، ومن عمل على خلاف ما علم ، فإنما هو صاحب صنعة ، ولم يزد على أن أقام على نفسه الحجة بالتفريط والتضييع ،

وذكرت من القرآن ما يدل على بغض الله ومقته للذين يقولون ولا يفعلون ، وأن من حمل العلم ولم يحمله ، كمثل الحمار يحمل أسفارا ، ففوجئت حينها بأن إمام الزاوية جاءني مسرعا ، وطلب مني إنهاء الكلمة ، فانتهيت على الفور حتى لا يسوء الأمر ، ويعلم الله أنني لم أرد إلا النصح ، ولم أقصد بالاستدلال بالآيات الكريمة سوى الاحتجاج على صحة ما أقول ، وليس التعريض بأحد .

استعظم إمامهم ما قلته ، وعقب يرد علي بما ملخصه :

1 - إن الذكر الجماعي مختلف فيه ، وأن أهل العلم جميعا يتفقون على أنه لا ينكر المختلف فيه .

2 - إن ابن عطاء الله السكندري مالكي ، وهو يقول بالذكر الجماعي ، فالقول بأن المالكية يكرهون الذكر الجماعي غير مسلم .

3 - إن البخاري روى في صحيحه عن النبي ﷺ ما معناه : « اجهروا بالذكر » وهذا يدل على أن الجهر بالذكر الجماعي مشروع ؟ .

رأيت من الحكمة ألا أعقب على تعقيبه أمام مريديه حتى لا يتحول النصح إلى جدال وعصبية ، لكن لم يفتني أن أسجل في الحين تعقيب علي ما قاله مكتوبا ، تحريراً لمحل النزاع ، وتتميماً للفائدة والمناصحة ، فقلت :

أما قولك إن الذكر الجماعي مختلف فيه ، وإنه لا ينكر المختلف فيه ، فهذا صحيح أوافقك عليه ، لكن شأن السالكين المنتسبين إلى العباد الزهاد أن يتركوا ما لا بأس به حذرا مما به بأس ، لا أن يواظبوا على فعل المختلف فيه ، بحثا عن الخلاف والتعلق به ، والذي حملني على أن أبين حكم المسألة في ذلك المجلس هو أن الكتاب الذي وجدتم تقرأونه في ذلك المجلس على الشيخ - وهو شرح الدردير على مختصر خليل - هو الذي ينص على كراهة الاجتماع للذكر فاستغربت أنكم تخالفون ما تقرأون ، فلم تقرأون إذا ؟ !

ثم إن الاختلاف في الذكر الجماعي بين أهل العلم في كراهته أو عدمها محله ما لم يكن في المسجد الذي تؤدي فيه الصلوات ، ويؤدي رفع الصوت فيه

إلى التشويش على المصلي ، وإلا فلا يُختلف حينئذ في النهي عنه ، ولو كان رفع الصوت بالقرآن كما تقدم ، لقوله ﷺ فيما رواه الموطأ حين سمع رفع الصوت في المسجد بالقرآن: « إن المصلي يناجي ربه فليُنظر بما يناجيه به ، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن» (1) وليس لأحد مع رسول الله ﷺ قول ، وكان مالك رحمه الله تعالى ، كما ينقل عنه القاضي عياض في المدارك لا يحب رفع الصوت في المسجد لا بالعلم ولا بغيره ، وإنما كان مذهبه كراهة الاجتماع للذكر بجمع كثير أو بمكان مشتهر كما نصت عبارة خليل في المختصر ، وكره مالك ذلك لأنه كان شديد الاتباع ولم ير من سبقه من الصحابة والتابعين - وهم خير القرون - يفعلونه ، ولا شك أن اقتفاء أثرهم والشدّ بغرزهم أقوم قيلاً وأهدى سبيلاً ، وإن كان القول الآخر المنجوز تحتمله بعض الأدلة الصحيحة ، لكن كلما اقترب الباحث في الفقه على الصواب من المنبع شرب صافيا زلالا ، والنبع الصافي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه قولاً وعملاً ، وخليق بالعباد المنتسب إلى الزهد والتصوف أن يشرب صافيا نقيا .

أما قولكم إن ابن عطاء الله مالكي ، وهو يقول بالاجتماع للذكر ، فإني أقول: إن ابن عطاء الله على الرأس والعين ، ولكن مذهب مالك يؤخذ من مدونته ومن موطئه ، أما ما خالفهما من أقوال أهل العلم ، فهو مذهب ذلك القائل المخالف ، اجتهادا من عنده ، وليس مذهب مالك .

وأما ما نسبتموه إلى البخاري من أن النبي ﷺ قال اجهروا بالذكر فإن الثابت في البخاري وغيره عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه حين رفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبُعُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّهُ مَعَكُمْ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» (2) .

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه وأن

(1) الموطأ حديث رقم 177 .
(2) البخاري حديث رقم 2830 .

يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وهو
حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الصادق بن عبد الرحمن الغرياني

25 من ذي القعدة 1427 هـ